سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»[1] ثم حذرهم عليه السلام من الغلول، وهو الاختلاس من الغنائم دون إذن منه، فكانت هذه القصة الأنصارية:

قصة الأنصاري وخيوط الشعر

وذلك بعد أن: «اتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، حتى ألجؤوه [إلى سمرة]، فاختطفت الشجرة عنه رداءه فقال: ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً، لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً.

ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها فقال: أيها الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم. فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عاراً ونارا وشناراً يوم القيامة.

فجاءه رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يا رسول الله.. أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لي دبر.

قال: أما نصيبي منها فلك. فقال: إنه إذا بلغت هذه فلا حاجة لي بها ثم طرحها من يده»[2]. فلا حاجة لهذا المجاهد في إفساد جهده وجهاده من أجل كنوز الدنيا، فكيف يفسده من أجل كومة من شعر تافه رخيص.

هذا هو مفهوم المال العام في الإسلام.. إنه للأمة، فالصحابة قالوا: اقسم علينا فيئنا. فلم ينكر عليهم عليه السلام، بل أكد ذلك بقوله: (أيها الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم) كما أنه حذرهم من التعامل مع هذا المال وأخذه دون إذن الإمام.

هذا هو الجيش الإسلامي المنطلق من الكتاب والسنة، لا من ثكنات التشريعات العسكرية البشرية، التي عجزت عن ضبط جنودها عن النهب والسلب والاغتصاب

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٣٨.

(٢) سنده حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٢-١٧٥ والبيهقي في الكبرى ٦-٣٣٦ وغيرهما قال حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال وهو سند حسن مشهور والزيادة لأحمد ٢-١٨٤.

و.. وقائمة شـــنيعة من جرائم الحرب، بل عجزت عن ضبطهم حتى ضد أنفسهم. أما محمد عليه السلام فبكلمة واحدة ضبط كل شيء، لأنه لا يخاطب جنوده من الخارج، بل يشـــيدهم من الداخل.. هو صوت دائم في أعماقهم يجذر خوف الله قبل كل شيء فيهم، وها هو صوته الذي لا يخبو ينادي من أجل ذلك رجالاً ليس لهم تاريخ ولا رصيد حتى الآن في الإســـلام، بل إن بعضهم ســـخر كل ما يملك من أجل القضاء على هذا الديـــن، ومع ذلك، وفي أصفى لحظات الانتقام يطل محمد ﷺ رحمة وعطاء أخجلهم طوال حياتهم، وعرفهم بربهم تعريفاً جديداً لا تحجبه الأحقاد.

اســـتدعى ﷺ أبا ســـفيان بن حرب، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، فحولهم إلى أثرياء.. في لحظات كان الجميع يترقب أن يكون الثراء من نصيب أبي بكر أو عمر أو علي أو سعد بن عبادة أو أسيد بن حضير، أو غيرهم من عمالقة الأنصار والمهاجرين.

استدعى ﷺ أولئك الرجال فـ «أعطى النبي ﷺ من غنائم حنين الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وعيينة بن حصين مائة من الإبل. فقال ناس من الأنصار: يعطي رســـول الله ﷺ غنائمنا ناساً تقطر سيوفهم من دمائنا، أو تقطر سيوفنا من دمائهم؟! فبلغه ذلك»[1]

بلغـــه هذا الكلام الصادر من بعض فتيان الأنصار المتحمســـين، والذين يرون في الغنائم أوســـمة للمحاربين، ومكافأة لهم، وهم يرون أن هؤلاء لا يســـتحقون مثل هذا التكريم نظـــراً لتاريخهم البعيد، وحتى القريب.. حيث فـــروا من أرض المعركة.. هذه الكلمـــات غير المتزنة، والتي ينقصها التروي وبعـــد النظر.. وجدت خصوبة لدى أحد المتهوريـــن من فتيـــان الأنصار، فأطلـــق كلمات غيرت وجه النبـــي ﷺ، وعكرت صفو انتصاره بعد أن نقلها له أحد الصحابة.. الذي يروي ما حدث من:

الاحتجاج على توزيع الغنائم

فيقول: «لما قســـم النبي ﷺ قسمة حنين، قال رجل من الأنصار: ما أراد بها وجه الله»[2] وذلك حين «آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، وأعطى الأقرع بن حابس مائة

---

(١) ســـنده صحيح رواه الإمام أحمد ٣-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس وهذا سند ثلاثي صحيح. يزيد ثقة مر معنا وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٧٦ والزيادة له أيضاً.

من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة، فقال رجل: والله إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد فيها وجه الله. فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ.

قال: فأتيته فأخبرته بما قال، فتغير وجهه حتى كان كالصرف[1]، فغضب من ذلك غضباً شديداً واحمر وجهه، حتى تمنيت أني لم أذكره له. ثم قال: فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله. ثم قال: يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر. قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً»[2]

لم يكن ذلك الشاب الأنصاري الطائش وحده الذي تطاول على النبي ﷺ، واتهمه بعدم العدل، فإن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه سمع ورأى متهوراً آخر يتهم النبي ﷺ ويعلن عن:

مولد أول الطوائف المتطرفة

طائفة غرتهم كثرة عبادتهم، فتوجهوا نحو عيوب الناس وتناسوا عيوبهم، فجرهم ذلك إلى قذف التهم يمنياً وشمالاً، وتطاولوا فتسوروا القلوب، واقتحموا النوايا، ورسموها لا كما هي، بل كما يريدون، وكما تشكلت في مخيلتهم المريضة.

النوايا حصون منيعة لم يجرؤ النبي ﷺ على اقتحامها يوماً، إلا بوحي يحمله جبريل.. فيقول لأمته: (إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم)[3] أما هؤلاء الخوارج فتهوروا باقتحام ما عجز عنه النبي ﷺ، بل تجرأ أحدهم اليوم على تصحيح الوحي ذاته ونقد النبوة. يقول أبو سعيد رضي الله عنه: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل.

فقال ﷺ: ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل. قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه. فقال: دعه فإن له أصحاباً،

---

(١) الصرف شجر أحمر.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٩.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٨١.

يحقــر أحدكم صلاته مع صلاتهــم، وصيامه مع صيامهم، يقــرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شــيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شــيء، ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شــيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء. قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس.

قال أبو ســعيد: فأشهد أني ســمعت هذا الحديث من رســول الله ﷺ»[1] هكذا يصفهم عليه الســلام أنهم لم يأخذوا من الإســلام.. تماما كمثل السهم السريع جداً الذي يصيب الفريســة، فيخرج منها بالســرعة نفســها، دون أن يعلق فيه شــيء من جســدها سوى لون الدم، فلاشيء على الحديدة التي تسمى النصل، ولا على رصافه، أي العصــب الذي يلف على مدخل النصل، ولا على الريشــة في آخره، والتي تســمى القــذة. وقــد ذكر النبي ﷺ مزيداً من صفاتهم، حتى لا ينخــدع الناس بكثرة ركوعهم وسجودهم وصيامهم وقراءتهم للقرآن، ولا بكثرة حلقهم لرؤوسهم.

يقول عليه الصلاة والســلام: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأســنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»[2] «قيل: ما سيماهم؟ قال: سيماهم التحليق»[3] أي حلق شعر الرأس.

حادثة هذا الخارجي الذي يعتبر شاذاً اليوم أمام الحضور الغامر والجميل لكتاب الله وســنة رسول الله ﷺ، هذه الحادثة سلطت الضوء على مساحة الحرية الشاسعة في القول والتعبير عن الرأي والاحتجاج بالكلمة، كما كشف رحابة صدر القائد المسلم، والدولة المسلمة في الاستماع لمواطنيها مهما أغلظوا في القول أو احتدوا في التعبير. فهذا الرجل لم يضرب، ولم يســجن، بل رفض عليه الســلام أن يمسه عمر بأذى، بل قال لعمر: (دعه). لماذا؟

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٢١.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٢١.

(٣) صحيح البخاري ٦-٢٧٤٨.

لأن في الحق والعدل ما يخرس ألسنة المتطرفين، ويصرف وجوه الناس عنهم، لكن الخوارج إذا انتقلوا من اللسان إلى السيف، فلا بد من مواجهتهم بالأسلوب نفسه، وبالعدل أيضاً، وهذا ما شرعه النبي ﷺ لأمته في التعامل مع الخوارج.

أما غير الشاذ على ساحة الجعرانة، فهو إحساس بعض شباب الأنصار ببعض الغضاضة.. من ذهاب الغنائم إلى رجال لم يعرفوا الإسلام إلا منذ أيام، عندما قام ﷺ «فقسم في المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار شيئاً. فقالت الأنصار: إذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا»[1]... أحس ﷺ بعتاب الأنصار وحبهم يتمددان في صدره، فأحب أن يقدم لهم كنوزاً لا يستحقها سواهم، ومجداً لا يطاوله غيرهم.. في الوقت الذي يفرح غيرهم بخشاش الأرض. وذلك «لما قسم رسول الله ﷺ السبي بالجعرانة، أعطى عطايا قريشاً وغيرها من العرب، [أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعيينة ابن حصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرع

فما كان بدر ولا حابس ... يفوقان مرداس في المجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تخفض اليوم لا يرفع

قال فتم له رسول الله ﷺ مائة][2] ولم يكن في الأنصار منها شيء، فكثرت القالة وفشت حتى قال قائلهم: أما رسول الله فقد لقي قومه.

فأرسل إلى سعد بن عبادة فقال: ما مقاله بلغني عن قومك أكثروا فيها؟ فقال له سعد: فقد كان ما بلغك.

قال: فأين أنت من ذلك؟ قال: ما أنا إلا رجل من قومي. فاشتد غضبه وقال: اجمع قومك ولا يكن معهم غيرهم.

فجمعهم في حظيرة من حظائر النبي ﷺ، وقام على بابها وجعل لا يترك إلا من كان من قومه، وقد ترك رجالاً من المهاجرين وزاد أناساً. ثم جاء النبي ﷺ يعرف في

---

(١) صحيح مسلم ٢-٧٣٥.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم عن رافع بن خديج رضي الله عنه ٢-٧٣٧.

وجهـــه الغضب، [فقال: هل فيكم من غيركم؟ قالوا: لا، إلا ابن أخت لنا. فقال رســـول الله ﷺ: ابن أخت القوم منهم][1]

[فجمعهم في قبة من آدم، فلما اجتمعوا جاءهم رســـول الله ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رســـول الله ﷺ: فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم][2] يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله؟

فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

يا معشر الأنصار، ألم أجدكم عالة فأغناكم الله؟

فجعلوا يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

يا معشر الأنصار، ألم أجدكم أعداء فألف الله بين قلوبكم؟

فيقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله.

فقال: ألا تجيبون؟

قالوا: الله ورسوله آمن وأفضل.

فلما سري عنه قال: ولو شئتم لقلتم فصدقتم: ألم نجدك طريداً فآويناك، ومكذباً فصدقناك، وعائلاً فآسيناك، ومخذولاً فنصرناك؟

فجعلوا يبكون ويقولون الله ورسوله آمن وأفضل.

قـــال: أوجدتم من شـــيء من دنيا أعطيتهـــا قوماً أتألفهم على الإســـلام، وكلتكم إلى إســـلامكم، لو سلك الناس وادياً أو شـــعباً، وسلكتم وادياً وشعباً لسلكت واديكم أو شعبكم، وأنتم شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار [الأنصار كرشي وعيبتـــي][3]، ثم رفع يديه حتى إني لأرى ما تحت منكبيـــه فقال: اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار.

---

(١) سنده صحيح مر معنا قبل قليل رواه أحمد ٣-٢٠١ ثنا يزيد بن هارون أنا حميد عن أنس.

(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٣.

(٣) سنده صحيح وهو حديث الإمام أحمد السابق.

أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى بيوتكم؟

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وانصرفوا وهم يقولون: رضينا بالله رباً، وبرسوله حظاً ونصيباً»[1] بعد أن أشار ﷺ إلى مواقعهم ومواقع غيرهم، وأراهم هول الكنوز والأمجاد الخالدة التي سيسافرون بها عبر التاريخ، فهم وحدهم الذين استدعاهم النبي عليه السلام في الشدة، بعد أن هرب الناس وتركوه، وهم وحدهم الذين لم يقبضوا شيئاً من تلك المعركة التي هي في الحقيقة معركتهم وحدهم، وهم وحدهم غنموا النبي عليه السلام وفازوا به، بينما فاز غيرهم بالبقر والماعز.

أفاق الأنصار من كبوة عابرة، وتجلى حب الله لهم.. قبل أن يحركوا رواحلهم من هذا المكان المزدحم بالعواطف الجياشة، فقد حدث شيء سار ومفرح للنبي ﷺ وأصحابه.. خاصة الأنصار وذلك عندما شاهدوا جميعاً:

هوازن كلها تدخل في الإسلام

هاهي خيل فرسانهم تنهب الأرض نحو الجعرانة.. تبحث عن رسول الله ﷺ، لا لتقاتله، بل لتسلم وترجوه أن يطلق أطفالها ونساءها وأموالها، ويحررها من الرق لتعود بها. لكن الوقت قد فات، فقد انتظرهم النبي ﷺ أكثر من عشرة أيام.

في هذا الوقت كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد سبق الجميع إلى مكة، وذلك لـ:

وفاء نذر نذره عمر في الجاهلية

يقول ابنه عبد الله بن عمر «إن عمر بن الخطاب سأل رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة، بعد أن رجع من الطائف فقال: يا رسول الله، إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف يوماً في المسجد الحرام فكيف ترى؟ قال: اذهب فاعتكف يوماً»[2] فهو وإن كان

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن أبي شيبة ٧-٤١٨: حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد. عاصم تابعي ثقة التقريب ٢٨٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٢٧٧.

نذر طاعة، إلا أنه عبادة تحتاج إلى سؤال النبي ﷺ لأخذ شرعيتها، لأن العبادات في الإسلام محرمة، إلا إذا كان لها دليل من كلام الله، أو موافقة نبيه ﷺ، وهذا النذر كصلاة بلال عندما «قال رسول الله ﷺ لبلال عند صلاة الغداة: يا بلال، حدثني بأرجي عمل عملته عندك في الإسلام منفعة، فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة؟ قال بلال: ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة، من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل ولا نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي»[1]

فلو لم يوافق النبي ﷺ فعل بلال، لتحول ذلك العمل إلى ابتداع مرفوض في الإسلام، فذات يوم و«بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم. فسأل عنه؟ فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: مروه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه»[2]

فقد وافقه النبي ﷺ على نذر الطاعة فقط، وهو الصوم، واحتج على نذر المعصية وأبطله، ففي الإسلام يجب أن تظل العبادة نقية من الزيادة والنقصان والغلو، حتى يبقى هذا الدين نقياً كما أنزل، وحتى لا يتكئ المسلم على فعل عمر أو بلال، أو حتى أبي إسرائيل رضي الله عنهم.. بدعوى أن الصحابة لا يمكن أن يخالفوا رسول الله ﷺ، فالصحابة رضي الله عنهم غير معصومين، فهم يخطئون وينسون، بينما النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، وقد عصمه الله عن الخطأ في التبليغ والتشريع، والمستند الوحيد المقبول هو فعله وقوله وموافقته ﷺ، لأنه هو وحده الذي يوحى إليه، وهو وحده النبي، بل خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام وآخرهم، والبقية تبع لمحمد ﷺ، وبذلك نضمن بقاء الإسلام جديداً طرياً.. نشربه من النبع لا من الفروع التي قد تلتاث عبر التاريخ بالأهواء والعواطف والنزوات.

إذاً فقد أقر النبي ﷺ عمر على نذر الطاعة في الجاهلية، وهو الآن في مكة ليفي بنذره، في الوقت نفسه وصل مقاتلوا قبيلة هوازن إلى أرض الجعرانة معلنين إسلامهم، وانضوائهم تحت لواء الإسلام.. راجين من النبي ﷺ أن يحرر أطفالهم ونساءهم وأموالهم، فـ:

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٩١٠.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٤٦٥.

هل ستحصل هوازن على ما طلبته

أحد شهود العيان «عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أتى وفد هوازن رسول الله ﷺ وهو بالجعرانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا منَّ الله عليك.

فقام رجل من هوازن أحد بني سعد بن بكر - وكان بنو سعد هم الذين أرضعوا رسول الله ﷺ - يقال له (زهير بن صرد) وكان يكنى بأبي صرد فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك، وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أننا ملحنا للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائدته، وأنت خير المكفولين، ثم قال:

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخر

امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها في دهرها غير

في أبيات قالها.

فقال رسول الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فقالوا يا رسول الله: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا، فهم أحب إلينا.

فقال: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب، فهو لكم، فإذا أنا صليت بالناس فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم.

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به؛ فقال رسول الله: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم.

وقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله.

وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله.

قال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا.

وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا.

وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا.

قالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله. قال العباس لبني سليم: وهنتموني.

فقال رسـول الله ﷺ: أما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم، فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه. فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم»[1]

وعـادت هوازن مبتهجة مجموعة الشـمل بالإسـلام والنسـاء والأطفال، ونهض الجيش المسـلم متوجهاً نحو مكة لأداء العمرة مـع النبي ﷺ، وتمايلت مطايا الأنصار تحمـل النبي ﷺ فهو غنيمتها من هذه المعركة العظيمة، وفي الطريق توقف النبي ﷺ ومن معه لأداء الصلاة، ولما بدأ المؤذن بالنداء للصلاة انطلقت صيحات غريبة من خارج المعسكر المسلم.. كانوا:

مجموعة من الشباب يسخرون من الأذان

ويقومون بترديد ما يقوله.. مقلدين صوته الجميل، وسـاخرين منه، وكان أشدهم تقليداً هو أكثرهم بغضاً للنبي ﷺ ولدينه.

وصلت صيحات الساخرين إلى مسامع النبي ﷺ، فتحرك نحو الصوت المستهزئ حاملاً في صدره حلم الداعية، ووعي المربي، وبأسـلوب عذب وراق، ودون تجهم وجه أو تشـنج أو ضجيج.. تهادى نحو أولئك الفتيان برفـق، وقدم للتربويين في كل الدنيا درسـاً في استغلال الطاقات، وعدم إهدار القدرات، فحدثت هذه القصة التي يرويها أبو محذورة. وأبو محذورة هذا.. هو ذلك الشـاب الذي كان شـديد البغض والتقليد للأذان وأهله، حيث يقول «نعم خرجت في نفر، فكنا ببعض طريق حنين، فقفل رسول الله ﷺ من حنين فلقينا رسـول الله ﷺ ببعض الطريق.. فأذن مؤذن رسـول الله ﷺ بالصلاة عند رسـول الله ﷺ، فسـمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون، فصرخنا نحكيه

---

(١) سند صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري في التاريخ ٢-١٧٣ وغيره: حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهذا السند مشهور جداً وهو حسن لكن كلمة الأنصار وَهْمٌ من عمرو أو من ابن إسحاق لأن الأنصار لم يحصلوا على شـيء من غنائم هوازن إلا إن كان المقصود كل ما حصلوا عليه من السـلب فقد حصل بعض الأنصار على سلب من قتلوه أثناء المعركة.

ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ الصوت فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع.

فأشار القوم كلهم إلي، وصدقوا، فأرسل كلهم وحبسني فقال: قم فأذن بالصلاة. فقمت ولا شيء أكره إلي من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ، فألقى إلي رسول الله ﷺ التأذين هو نفسه فقال قل:[1]

«الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله

ثم يعود فيقول أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة مرتين

حي على الفلاح مرتين

الله أكبر الله أكبر... لا إله إلا الله»[2]

ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمارها على وجهه مرتين، ثم مرتين على يديه، ثم على كبده، ثم بلغت يد رسول الله ﷺ سرة أبي محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: بارك الله فيك.

فقلت: يا رسول الله، مرني بالتأذين بمكة.

فقال: قد أمرتك به. وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهية، وعاد ذلك محبة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ بمكة، فأذنت

---

(١) انظر تخريجه في الحديث بعد التالي.

(٢) صحيح مسلم ١-٢٨٧.

معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ»[1] الذي لم يعنفه، ولم يأمر بقطع رأسه، بل اكتفى بالنظر داخل هذا الفتى، فوجد طيشاً يحتاج إلى من يترفق به، ووجد مواهب ليس من العدل إهدارها على الطريق. أما الفتى فوجد من يعتني به ويقدر ما لديه، فاحتضنه بقلبه وتحول إلى أحب الناس إليه، ولم يكتف بذلك، بل طلب من النبي ﷺ في الحال أن يوظف ما لديه من قدرات في الخير، له وللناس. فكان ما أراد. فمحمد ﷺ أفضل بيئة لتنمية الإبداع ورعاية المواهب، ولكن نحو خير البشرية ورفاهها، لذلك أطلق ذلك الفتى وانطلق بجيشه نحو مكة لـ:

أداء العمرة..

وصل النبي ﷺ إلى مكة، فأدى العمرة وهذه العمرة هي الثالثة بعد عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، ثم وفى بعهد الحب بينه وبين الأنصار، فانطلق نحو شعاب الأنصار، لكن قبل أن ينطلق قام ﷺ بـ:

إعادة أدراع صفوان بن أمية

فقد «استعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية سلاحاً، فقال صفوان: أعارية، أم غصب؟ فقال: بل عارية.

فأعاره ما بين الثلاثين إلى أربعين درعاً، فغزا رسول الله ﷺ حنيناً، فلما هزم الله المشركين قال رسول الله ﷺ: اجمعوا أدراع صفوان، ففقدوا من دروعه أدراعاً، فقال

---

(١) حديث حسن رواه الإمام أحمد ٣-٤٠٩ وغيره من طريق ابن جريج أخبرني عبد العزيز ابن عبد الملك بن أبي محذورة أن عبد الله بن محيريز أخبره وكان يتيماً في حجر أبي محذورة عن أبي محذورة... ثم قال ابن جريج: وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز وهذا السند فيه ضعف من أجل عبد العزيز فهو مقبول عند المتابعة.. ولذلك قال الحافظ في التقريب: مقبول ٣٥٨ أما شيخه فتابعي ثقة: التقريب ٣٢٢ وعبد العزيز لم ينفرد فقد توبع تابعه من أدرك ابن جريج من أهله وللحديث شاهداً عند ابن خزيمة: ٢٠٠١ حدثني عثمان ابن السائب أخبرني أبي وأم عبد الملك بن أبي محذورة عن أبي محذورة. وقد توبع عثمان. وصححه الإمام الألباني في صحيح النسائي (٦١٣).

رسول الله ﷺ لصفوان: إن شئت غرمناها لك. فقال: يا رسول الله، إن في قلبي اليوم من الإيمان ما لم يكن يومئذ»[1].

لقد أخجله وغمره كرم هذا النبي ﷺ الغامر وتسامحه وسعة حلمه، فأصبح لا يرى في الدنيا غير محمد وأخلاق محمد ودين محمد، فبمثل هذا المستوى من الأخلاق تنتزع القلوب، وتتهاوى تلك الجدران الغليظة التي تحول بين صاحبها وبين استمراء الحقيقة والانفتاح عليها، والنبي ﷺ لم يؤثر على كثير من الناس بسبب كثرة صلاته وصيامه أو مظهره، فبالإضافة إلى حمله حقيقة كالنهار، فإنه يحمل معها أخلاقاً كالماء البارد للعطشى والمتعبين.. يعفو عن هذا ويعطي هذا، ويثني على ذاك ويمدح رابعاً ويتنازل لخامس و.. ويبتسم في وجه الجميع، ويصدق مع الجميع، ويفي بوعوده، ويلتزم بمواثيقه ولا ينتقم لنفسه.. وقائمة لا تنتهي من الأخلاق البيضاء.. التي أعيى الكثير من المتدينين وغير المتدينين حملها. فتلك الصفات أثقل من الجبل.. إذا لم يتخلَّ الإنسان عن أنانيته، وذاته الكثيفة المعتمة التي لا يرى معها سواها. أما أولئك الذين يضعون أنفسهم ضمن الجميع، ويحكمون عليها كما يحكمون على الجميع، ويحبون للجميع ما يحبونه لها، فهم تلك النوعية الممتازة من البشر التي تستمتع بممارسة الأخلاق وتبدع في إهدائها، وهذا ما يجيده النبي ﷺ، وبه تمكن من أخذ قلب صفوان بن أمية، رغم أن صفوان لا يزال حتى الآن في مكة. أما النبي ﷺ فحمله الأنصار نحو شعبهم عندما توجه الناس نحو شعابهم، ومعه المهاجرون الأبرار، ولم يمض من الوقت غير قليل حتى تمايلت المطايا نحو المدينة فإذا:

صفوان بن أمية في المدينة

حيث تحول الوطن عنده إلى مساحات يرسمها قلب النبي ﷺ، ففي مكة «قيل لصفوان: إنه من لم يهاجر هلك.

---

(١) حديث حسن رواه البيهقي في الكبرى ٦-٨٩ أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد المقري أنبأ الحسن بن محمد بن إسحاق ثنا يوسف بن يعقوب القاضي ثنا مسدد ثنا أبو الأحوص ثنا عبد العزيز بن رفيع عن عطاء بن أبي رباح عن ناس من آل صفوان بن أمية. وأخبرنا أبو علي الروذباري أنبأ أبو بكر بن داسة ثنا أبو داود ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا جرير عن عبد العزيز بن رفيع عن أناس من آل عبد الله بن صفوان أن رسول الله ﷺ. وله شاهد من طريق شريك بن عبد الله في مسند أحمد ٦-٤٦٥ عن عبد العزيز بن رفيع عن أمية.

فدعـا براحلته فركبها، فأتى المدينة فقال له رسـول اللـه ﷺ: ما جاء بك يا أبا وهب؟ قال: بلغني أنه لا دين لمن لا هجرة له؟

قال: ارجع إلى أباطح مكة. فرجع»[1] لكنه كان متعباً «فدخل المسجد فتوسد رداءه فجاء رجل فسـرقه، فأتي به النبي ﷺ فقال: يا رسـول الله سـرق هذا ردائي. فأمر النبي ﷺ بقطعه.

فقلت: يا رسول الله لم يبلغ ردائي ما تقطع فيه يد رجل، قد جعلتها صدقة عليه.

فقال رسول الله ﷺ: فهلا قبل أن تأتيني به»[2]

فالشـفاعة تجوز عندما تكون الشكوى في طريقها إلى الحاكم، أي عند الشرطة وأماكن الشـكوى، أما إذا وصلت إليه، فإن الشـفاعة تتحول إلـى جرم خطير.. يهدد الأمن الداخلي للدولة، ويمكن للفساد من التسلل إلى جهاز القضاء والعدالة فيها، وفي التشريع الإسلامي حدود خمسة لا تجوز الشفاعة فيها هي:

حد السـرقة، وحد شـرب الخمر، وحد الزنا، وحد القذف، وحد الحرابة. وهي حـدود ضرورية لحماية الدماء، والأموال، والأعراض، والعقول، والأنسـاب. فلا خير في حياة تمتهن تلك الأشـياء التي تعادل الحياة نفسـها، وتميز الإنسـان وترفعه عن مرتبة الحيوان، فليس من المسـتغرب أن يرتكس الإنسـان إلى درجة أسـفل من درجة الحيـوان، في تلك اللحظات التي ينتهك فيها تلك الأشـياء، لأنه قد يفعل ذلك بوعي وإرادة وترتيب. أما الحيوان فهو يسـفك ويفتـرس بدافع غريزي بحت، ودون وعي أو ترتيب مسبق.

تلـك الأفعال التي يقوم بها الحيوان هي شـرط الحياة الوحيد المتوفر لديه، وهو شـرط مبرمج داخله من الخالق سـبحانه. أي أنه لا يمكن لـه العيش دون ذلك. أما

---

(١) حديث حسـن رواه مالك ومن طريقه الضياء في المختارة ٨-٢٠ أخبرنا سـليمان الطبراني ثنا أبو مسـلم الكشـي ثنا أبو عاصم عن مالك بن أنس عن ابن شـهاب عن صفوان ابن عبد الله بن صفوان عن جده. وأحمد عن حسين بن محمد عن سليمان بن قوم عن سماك عن جعيد ابن أخت صفوان عن صفوان وعن عفان عن وهيب عن ابن طاوس عن أمية عن صفوان بنحوه.

(٢) حديث حسن رواه الإمام مالك وهو جزء من الحديث السابق.

الإنسان فله طرق كثيرة جداً للعيش.. دون الإضرار بالآخرين، لكنه يختار أحياناً طرقاً شديدة الضرر بمحض إرادته.. إرضاءً لغروره أو جشعه، أو نوازع الحقد في داخله، أو تحت تأثير العاطفة والشـــهوة، وهي أشياء لا تمت للضرورة أو للصراع من أجل البقاء بصلة، ومســـؤولية الفرد الشخصية أمر جعله الإســـلام من ثوابته، والنبي ﷺ يمارس تطبيقه الآن مع هذا السارق على أرض المدينة. فهو يسرق شيئاً ليس مضطراً للحصول عليـــه للبقاء حياً. كما أنه مارس ذلك داخل المســـجد، وباعترافه هو.. مع ملاحظة أن النبي ﷺ لم يكن في مثل هذه الحالات يمارس الحبس على ذمة التحقيق، أو التعذيب لانتزاع الاعتراف بالقوة والقهر.

كان ﷺ يقرر قاعدة الوقوف مع المتهم حتى تثبت عليه التهمة، فعندما «أتي بسارق قد سرق شملة فقالوا: يا رسول الله. إن هذا سرق. فقال رسول الله ﷺ: ما أخاله سرق.

فقال الســـارق: بلى يا رســـول الله. فقال رســـول الله ﷺ: اذهبوا به فاقطعوه، ثم احسموه، ثم إيتوني به. فقطع، ثم أتي به فقال: تب إلى الله. فقال: تبت إلى الله. فقال: تاب الله عليك»[1]

فتطبيق الحد لا يعني أن ينصرف المذنب وهو يحس أنه مراقب من قبل الســـلطة والمجتمـــع فقط، لأن تلك الرقابة تذوب متى ما أمن العقوبة، وتوفرت له ســـبل الفرار والخـــروج والتحايـــل على النظام. أما الإســـلام فيجذر في أعماق الفـــرد رقابة الله، والخوف منه قبل كل شيء، فالله لا يغفو ولا ينام ولا تخفى عليه خافية، وبذلك يتوافر لدى الشـــريعة الإســـلامية وحدها دون غيرها رقابتان: من الداخل.. حيث استشـــعار مراقبـــة الله. ومن الخارج.. حيث أحكام الشـــريعة ونظامها وتطبيق ذلك النظام على الجميع دون محاباة.

---

(١) صحيح وسنده حسن رواه الحاكم ٤-٤٢٢ والبيهقي في الكبرى ٨-٢٧١ وغيرهما من طرق عن عبد العزيز ابـــن محمـــد الدراوردي أخبرني يزيد بـــن خصيفة عن محمد بن عبد الرحمن بـــن ثوبان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ابن ثوبان وتلميذه تابعيان ثقتان: التقريب ٤٩٢ و٢٠٦ والدراوردي حسن الحديـــث إلا عن عبيد الله العمري فمنكر وهذا ليس منهـــا وله طريق أخرى عند الطبراني: ٧-١٥٧ عن السائب بن يزيد.

كان ﷺ يقـدم في المدينة لمن يأتي بعده.. دور الزعيـم والإمام، والقاضي والأب والمواطن الصالح لكل زمان ومكان.. لا يشـغله شيء عن شيء، ولا يعتذر عن مخالطة الناس وتحسس قضاياهم بكثرة مشاغله، واتساع دولته وكثرة غزواته.

هاهو في إحدى بيوته، وأحد أيامه السـعيدة يبتهج بهدية جميلة تقدمها له مارية القبطية:

مارية تلد ابناً للنبي ﷺ

سَعِدَ عليه السلام بولادة ابنه الجميل، وسماه باسم أبيه وأبي الأنبياء إبراهيم ﷺ. وكان هذا الرضيع الجميل يملأ قلب النبي ﷺ ويحظى بعنايته.. حتى انتقى له بيتاً من عوالي المدينة.. يتولون رضاعه، وكان يترد على ذلك البيت كالشوق.

يصفه أنس بن مالك فيقول: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مسـترضعاً له في عوالي المدينـة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت، وإنه ليدخل وكان ظئره قيناً، فيأخذه فيقبله ثم يرجع»[1]

كانـت تلك القبـلات الحانية موضع اسـتهجان بعض الأعراب الذين أكسـبتهم الصحـراء بعض ما فيها، فقد «قـدم ناس من الأعراب على رسـول الله ﷺ فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم. فقالوا: لكن والله ما نُقَبِّل. فقال رسول الله ﷺ: وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»[2].

وليس هناك شـيء أشـنع من نزع الرحمة من القلب.. سـوى توهم أن الرجولة تتطامن وتنقص بتقبيل الأطفال والانحناء لهم وكأنهم نسل بهائم مستقذرة.

وإذا كان إبراهيـم الصغير عليه السـلام قد أدخل البهجة على قلب والده، وكبده من الشـوق الكثير حتى تجشـم وهو رأس الدولة عناء البحث عنه لتقبيله وضمه، مع أن باسـتطاعته أن يطلب إحضاره متى شـاء وأين شاء، فإنه حزن كثيراً على ابن ابنته -لعلها- زينب، فهو الآن يعاني من مرض شديد.

---

(١) صحيح مسلم ٤-١٨٠٨.

(٢) صحيح مسلم ٤-١٨٠٨.

يقول «أسـامة بن زيد رضي الله عنهما: أرسـلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابنا لي قبض فائتنا. فأرسـل يقرىء السلام: ويقول: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها.

فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع.... كأنها شن[1] ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسـول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[2].

وما هذا النبي إلا رحمة مهداة..

كان لا يشـغله اهتمامه بشـؤون أسـرته عن الاهتمـام بقضايا أمتـه ومواصلة رسالته.

ها هو يسـتدعي أحد القادة الذين برزوا سـريعاً وبشكل ملفت (خالد بن الوليد) ويطلـب منه التوجه نحو منطقة يسـكنها بنو جذامة، وهـم حتى الآن في موقف يبدو غامضاً تجاه الإسلام ودولته، فتحرك خالد بن الوليد رضي الله عنه مأخوذاً بحماس المنتصر العائد من فتح مكة، وإخضاع أكبر قبائل الجزيرة (قريش) لدولة الإسلام، لكن أحداثاً غريبة ومؤسفة لا تحسب على الإسلام وقعت في:

غزوة بني جذيمة.. ومأساة عاشق وحبيبته

لـم ينطلق ابـن الوليد وحده نحو بنـي جذيمة، فمن مـكان لا أعرفه لكنه مفعم بالعواطف القاتلة.. كان هناك شاب يعشق فتاة يقال لها (حبيش) وهي تبادله العواطف نفسـها.. كان حباً عذرياً لم يتدنس برذيلة، أو يتلوث بعهر. لكن ذلك العفاف لم يسلم من المنغصات، فقد قدم الجاه والمال مع أمير لينتزعا حبيشـاً من بين عيني عاشـقها ومضاربـه، لتنطلق العير، وتتمايل الهوادج بحبيش ووصيفاتها، فيتحطم قلب العاشـق ويرغم صاحبه على التحرك، فينطلق خلفها كالمجنون.. عابراً المفاوز والمغاور لا يعرف

---

(١) كأن قعقة نفسه صوت قربة بالية عند تحريكها.

(٢) صحيح البخاري ٥-٤٣١. ومكان النقط: قال حسبته أنه قال